تغلغل المبشرون الأوربيون في مقاطعات الشرق الإفريقي منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي

أ.م.د. نزار كريم جواد الربيعي

مقدمة

لم تتعرف أفريقيا على عقيدة النصارى قبل السنوات الأخيرة التي شهدت نهاية الإمبراطورية الرومانية في شمال أفريقيا على يد المسلمين، ومع أول عهد انتشار الإسلام في هذه المنطقة، لم يكن للنصارى غير مملكة قبطية في بلاد النوبة شمال أم درمان بالسودان كانت تسمى (مملكة ميروي) رفضت دعوة التوحيد، وظلت على شركها في ظل الدولة الإسلامية حتى عام ١٤٠٥، عندما هاجمتها قبائل الفونج الوثنية، عليها لتعود أفريقيا مرة أخرى بين وثنية تجذرت بجهالاتها وبين عقيدة إسلامية تنتشر كنسمات الربيع.

كانت أفريقيا بالنسبة للنصارى عندما هجموا عليها كقطعة لحم جافة تتسابق إليها الكلاب لتنهش منها ما يسد نهمها، لم تكن الغاية هي المسيح، إنما كانت توسيع رقعة النفوذ في مواجهة الصراعات السياسية والعقدية التي سيطرت على كل أنحاء أوربا، إلى أن بدأت سياسة احتلال البلاد في افريقية واسيا، ونهب ثرواتها واستعباد شعوبها فيما يعرف بالحملات الاستكشافية أولا، ثم الحملات الصليبية بعد ذلك[١].

تحت ظل هذه الحملة تحركت الكنيسة الكاثوليكية من فرنسا ثم من بلجيكا والبرتغال وألمانيا وايطاليا واسبانيا، كما تحركت الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية من انجلترا ثم من فرنسا وسويسرا وألمانيا واسكندنافيا وأمريكا جاعلة لنفسها مقرا دوليا في منطقة جنوب افريقية[٢]. ومن أشهر طوائف البروتستانتية الذين نشطوا في قارة افريقية عموما هم الانجليكان والميثودست والبربيتاريان ثم اللوثرية وجمعيات البابتست Babtistes والادفنتست Adventistes، وبرج المراقبة Watch Tower والمعروفة بجماعة شهود بَهوْة وهي الجماعة الوحيدة التي حالت الكنائس البلجيكية وحكوماتها دون السماح لها بالدعوة في منطقة الكونغو، وقد أدت هذه التعددية اللا محدودة من مذاهب وملل واعتقادات النصارى التي هرعت إلى الأرض الجديدة إلى إثارة الفتن والعصبية وإشعال الحروب الضاربة بين قبائل الأفريقيين على مستويين[١]:

١) في الداخل بين من ترك الوثنية إلى النصرانية أو اعتنق مذهبا نصرانيا يخالف مذهب الأخر، لا داخل القبيلة فحسب، إنما داخل الأسرة الواحدة وداخل العشيرة الواحدة بين الأب وأبناءه، وبين الأشقاء وبين الزوج وأصهاره.

---

[١] أدوارد سيد ، الاستشراق ، ترجمة كمال ابو ديب ، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت ، ١٩٨١، ص٧٢.

[٢] نجيب العفيفي ، المستشرقون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١، ص ١٣٢.

[١] هشام جعيط، اوربا والاسلام، ترجمة طلال عتريسي ، دار الحقيقة ، بيروت، ١٩٨٠، ص١٧.

٢) في الخارج بين القبائل بعضها مع بعض لأرتداد بعضها عن الوثنية أو لاختلاف المذاهب والملل التي اعتنقوها محددا من النصرانية، وهكذا سالت دماء المئات والألوف من أبناء افريقية بأيديهم ثمن هذه الفتنة، إلى أن لجأت كل الإرساليات النصرانية إلى أسلوب جديد يحافظ على الطقوس والعادات الوثنية التي تربط بعض القبائل ببعضها والإبقاء عليها، إلى جانب طقوس النصرانية وعباداتها، وان اختلف ذلك عن اصولهم العقدية، وهو ما صنعوه بالنسبة للنصراني الزنجي الجديد بكلمتي (الموت الذاتي) أو (الاحتضار المعنوي) للدلالة على خطورة ذلك الانقلاب في حياة الرجل الأفريقي[٢].

ولكن على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت، والأموال الطائلة التي أنفقت وعشرات الأرواح التي أزهقت بين المنصرين، بسبب الأمراض التي كانت تنتشر في البلاد الأفريقية، فان حصاد النصرانية كان شيئا لا يذكر، ولا تتناسب مع الجهود والأموال والتضحيات التي خسرتها الكنائس وإرسالياتها، حتى نهاية القرن التاسع عشر ومثلما فعل نصارى البرتغال وهولندا وفرنسا، حاولت الكنيسة الألمانية أن تحقق شيئا في مواجهة المد الإسلامي بأفريقية فاختارت العمل بين قبائل تعرف بالهوتنتون ولكنها لم تحقق أي نجاح.

أستأثر الجهد التنصيري عدة مناطق من بينها منطقة تنجانيقيا (تنزانيا حاليا) وكينيا وأوغندا ورواندا [٣]، تغلغل المبشرون الأوربيون في مقاطعات الشرق الافريقي منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ونجحوا في تأسيس عدة مراكز تبشيرية في الداخل[٤].

ومن أولئك المبشرين يمكن أن نذكر كرايف Krapf وريبمان Rebman[٥]، الذين استقروا في بعض المقاطعات التابعة لسلطنة زنجبار يبشران بالمسيحية، ومن المهم ان نذكر أن كثيرا من المبشرين والمستكشفين لاقوا كثيرا من عناية ورعاية حكام السلطنة العربية، فقد ذكر كرايف في الكتاب الذي وضعه عن شرق أفريقيا مقدار ما منحه له السيد سعيد من تسهيلات ومعونات، وكيف كان يستعين بنفوذه في التوغل في مقاطعات الشرق الأفريقي، وفي مباشرة نشاطه التبشيري حيث أمده السيد سعيد بخطابات توصية للرؤساء التابعين له يطلب فيها منهم أن يعاملوا كرايف أحسن معاملة لأنه رجل يعمل على تمويل الوثنيين إلى معرفة الله، وعلى ذلك ينبغي أن يقدموا له كل ما يحتاج إليه من مساعدة[١]، وقد أقام كرايف عدة أشهر في زنجبار، ثم قام بعد ذلك بحركة ارتياد الى لامو وبلاد الجالا حيث انشأ هناك مركزا تبشيريا استقر فيه بعض الوقت وفي ذهنه أمال كبيرة[٢]، ولكنه كغيره من المبشرين،

---

[٢] رودي بايت، الدراسات الاسلامية بالعربية في الجامعات الالمانية، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة ، ١٩٦٧، ص١٠١.

(3) Custer Pfonn Muller: Handbuch der Island Later atur Berlin 1933, P.112

(4) Mona Macmillan, Introducing East Africa. P. 167.

[٥] يرجع الى ريجان فضل اكتشاف جبل كليمنجارو ، وقد وضع كرايف كتابا هاما عن بعثته التبشيرية في شرق افريقيا بعنوان:

Travels and Missionary Labours in East Africa, London, 1868.

(1) J. Krapt Trareles Researches and Missionary Labours during an eighteen years residencein Eastern Africa, London, 1868, P. 127.

(2) I bid, P. 119.

وجد إن الطبيعة كانت أقسى عليه من القبائل الأفريقية المعادية له، ففي خلال بضعة أشهر إقامته في بلاد الجالا فقد زوجته وابنه وكاد هو نفسه يموت من جراء إصابته بالحمى[٣] .

كذلك قام الفرنسيون بدور كبير في النشاط التبشيري، وكما لقي المبشرون عناية سلاطنة زنجبار وتشجيعهم فقد لقي نفس هذه المعاملة المستكشفون والرواد الأوربيون الذين قاموا بعملياتهم الكشفية في مجاهل القارة الأفريقية مسترشدين بما أوجده التجار العرب في مراكز ومحطات تجارية في قلب القارة الأفريقية، وقد نوه ريتشارد بيرتون R-Burton وهو واحد من أولئك المستكشفين، إلى انه بفضل عناية السيد سعيد ورعايته له نجحت بعثته الاستكشافية شرق أفريقيا[٤]، شهد القرن التاسع عشر تفوق قوة أوربا العسكرية والصناعية، وشهد هذا الرتل الطويل من المستكشفين والرواد والمبشرين والتجار الأوربيين والذين انتهوا إلى تلك الحقيقة وهي إن هناك أمكنة في إفريقيا صالحة للاستغلال وإنها قارة جديرة بالامتلاك والسيطرة، وهكذا شاءت الظروف أن تتصادم رغبة السيد سعيد في تأسيس إمبراطورية عربية في أفريقيا مع رغبة الدول الأوربية في السيطرة على تلك القارة واستعمارها واقتسامها فيما بينها ويمكننا أن نذكر ما ذكره بيرس Pearce في تعليقه على إمبراطورية السيد سعيد: " أنه ولد متأخرا في وقت غير ملائم لتحقيق تلك الآمال التي كان يحرص عليها"[٥].

وفي عام ١٨٤٤ استفاد ميزان وكان ضابطا من ضباط البحرية الفرنسية من تقارير كرايف وريجان في التوغل في الشرق الأفريقي، ونجح في الوصول إلى منطقة البحيرات العظمى، وقد اتخذ طريقه من جزيرة البوربون الواقعة في الجنوب غربي من المحيط الهندي، وعندما وصل إلى زنجبار قدم له السيد سعيد الكثير من العون والمساعدة، وان كان ميزان قد رفض أن يستصحب معه قوة عسكرية مكتفيا ببعض العرب العارفين بالطرق والمسالك الموصلة من الساحل إلى الداخل وبمساعدة أولئك وصل ميزان إلى بجمايو ومنها إلى مقاطعة الوكيميا، بين انه ألقى حتفه في الداخل حينما قتله بعض أفراد من قبيلة الماساي، وتحت ضغط الحكومة الفرنسية، أوفدت حكومة زنجبار قوة عسكرية لتأديب هذه القبيلة وزعيمها مازنجري[١].

كذلك ساعدت سلطنة زنجبار المستكشفين الانجليزيين (بيرتون وسبيك) الذين قاما بعملياتهم الكشفية في عام ١٨٥٦ مما ساعد على نجاح بعثتهما الجهود التي بذلها سلاطين زنجبار في تأديب قبائل الداخل ومحاولتهم نشر الأمن، مما أدى إلى تحقيق حدة التعدي من قبل هذه القبائل على الأوربيين وبالتالي نجاح حركات الكشف والارتياد الأوربي، وقد بدأت رحلة بيرتون وسبيك حينما وصلا إلى زنجبار ثم ذهبا في جولة بمبا وممبسة، حيث جمعا معلومات كثيرة من التجار العرب عن الجبال المغطاة بالثلوج، والبحيرة الكبيرة التي كان يسميها العرب بحيرة أو كيردى، وفيما يبدو إنها كانت التسمية المحلية التي أطلقتها عليها القبائل التي كانت تعيش على جوانبها، وهي نفس البحيرة التي أطلق عليها فيما بعد اسم فيكتوريا نيانزا [٢].

---

(3) Coupland East Africa and its inraders. P. 390.

(4) Burton Zanzibar, Gity, Island and Coast Vol. I P. 34.

(5) Pearce Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa, P. 120.

(١) جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، دار الفكر العربي، الكويت، ١٩٨٦، ص ٢٤٤.

(2) Burton, R. Kake Relion of Central Africa, London, 1800, P. 324.

وفي نهاية ١٨٥٧ وصل الرحالتان إلى انياموبزي وهناك استقبلهما العرب الذين كانوا يعيشون في هذه المنطقة بترحاب كبير، وقد أشار الرحالتان بالمساعدات القيمة التي قدمها لهما الشيخ سناي بن عامر الذي اخبرهما بوجود ثلاثة بحيرات مختلفة الحجم وهي البحيرات التي أطلق عليهما فيما بعد (نياسا وتنجانيقا وفيكتوريا نيانزا) وبعد أن جمع بيرتون وسبيك هذه المعلومات المحلية عاد إلى زنجبار استعدادا لرحلة أخرى.

واقبل بعد سبيك وبيرتون الكثير من الرحالة والمستكشفين الأوربيين لارتياد المناطق الداخلية في أفريقيا، ويبرز من أولئك لفنجستون Livingston الذي كان منصفا الى حد كبير في اعترافه بالمساعدات الكبيرة التي قدمت له من قبل السيد ماجد بن سعيد سلطان زنجبار في عام ١٨٦٥ وكان الهدف العلمي من رحلة لفنجستون حل مشكلة تقسيم المياه والتأكد من المنابع الرئيسية للنيل في المناطق الواقعة بين نياسا وتنجانيقيا[٣]، وقد استقبله ماجد استقبالا طيبا وزوده بكثير من خطابات التوصية إلى الرؤساء العرب التابعين له في الداخل، والجدير بالذكر إن لفنجستون تعرف في رحلاته بأحد التجار العرب ويدعى (حميد المرجبي) واستمد منه معلومات كثيرة عن الطرق والمسالك التي كان يتبعها العرب في تنقلاتهم في داخل القارة، وقد رافق لفنجستون قافلة عربية وصل معها إلى بحيرة ميروى وتمكن بمساعدة بعض الإدلاء العرب من اختراق إقليم كازيمبي، وفي بداية عام ١٨٦٩ وصل لفنجستون إلى الشاطيء الغربي لبحيرة تنجانيقا وتمكن بمساعدة بعض التجار العرب من الوصول إلى أوجيجي التي كانت محطاً للتجار العرب[١].

لقد كانت شخصية حميد المرجبي هي الشخصية المسيطرة على مقاطعات الكونغو وبعض المقاطعات الأخرى في أواسط أفريقيا، وجهوده التي بذلها في السيطرة على الكونغو وعن علاقته بكل من الانجليز والبلجيك[٢].

ومنذ ذلك الوقت اخذ الكتاب الألمان الذين اشتهروا بالصراحة يشيرون إلى ضرورة ايجاد مستعمرات لألمانيا والترويج لتجارتهم، ومن أهم هؤلاء الكتاب فابر Faber الذي نشر كتابا سنة ١٨٧١ عالج فيه موضوع حاجة ألمانيا لمستعمرات، واقترح إنشاء مستعمرات تخدم الأهداف الاقتصادية لألمانيا في بعض الجزر مثل جزر سموا Samoa ، وغانا الجديدة New Guinea ومدغشقر، وفي عام ١٨٧٨ أنشئت (الجمعية الألمانية للدراسات الإفريقية German Society For Africa Studies –) في برلين ، وكان لهذه الجمعية نشاط كشفي كبير، فاخذ الكثيرون من المكتشفين الألمان يعملون، بتعضيد هذه الجمعية، في المنطقة بين زنجبار وتنجانيقيا، وفي سنة ١٨٨٢ أنشئت (الجمعية الألمانية للاستعمار German – Colonail Society) في فرانكفورت.

والملاحظ إن نشاط الألمان كله في هذه الفترة قام على أكتاف كبار التجار الرأسماليين ورجال البعثات الدينية البروتستانتية والمكتشفين الذين يعملون أو الحساب جمعيات علمية أو بدافع من حب المغامرة، وليس على أكتاف الحكومة الألمانية[٣]، غير إن تحولا كبيرا حدث

(3) The Last Journal of David Ivingston Central Africa from 1865 to his death. 2Vols. London 1880.

(1) Slade Ruth King Leopods Congo, London, 1962, P. 198.

(٢) جورجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج١ ، ص ١٦٨-١٧٣.

(3) Taylor, A. i. P. Germany's First Bid for Colonies 1889, 1880 (London 1938).

في الاستشراف الألماني على وجه الخصوص مع ظهور الرومانسية التي ولدت الميل المفعم إلى كل ماهو غريب وعجيب Exotisch.

إذ كان الغريب دوما هو العجيب الفيا، فظهرت العاصفة والجموح للتوصل إلى معنى الإبداع وفي هذا الفضاء الفكري الجديد ظهرت كتابات هيردر الفلسفية (١٧٧٦-١٨٤١) عن الآداب الشرقية وإسهامات العرب والمسلمين في الفلسفة والعلوم التجريبية والثقافة الإنسانية حيث قال: "كان العرب أساتذة أوربا"، وكذلك كتب الشاعر الألماني الكبير غوته Goethe عام ١٧٧٤ قصيدته الرائعة (نشيد محمد) وكذلك (الديوان العربي – الشرقي) الذي قال فيه: "من يعرف نصفه والآخر يعترف هنا أيضا إن الشرق والمغرب لا يمكن أن يفترقا"[١]، وفي الوقت الذي انشغل فيه المستشرقون الألمان بمعرفة الآخر ولغاته وحضارته وآثاره الثقافية على اعتبار إن جوهر كل حضارة إنسانية وكذلك نواتها هي العقيدة واللغة.

انشغل الكتاب والشعراء والرسامون الانكليز والفرنسيون برسوم لوحات رومانسية صارخة حيث عبر عن ذلك الشاعر الألماني الكبير هانيرش هانية وهي الصورة التي كان يبحث عنها الرحالة والمغامرون الذين صوروا الشرق (بفجور ملون وفخامة مع وحشية بربرية برؤوس مقطوعة)[٢].

هذه الصورة الصاخبة والملونة بالحس الأوربي تترجم بشكل أو بآخر واقع أوربا في القرن التاسع عشر وفي الوقت نفسه صورة الشرقي وقد بات عدو مهزوما سلفا مع انحسار دور تركيا واحتلال الخليج العربي عام ١٨٣٩.

إن صورة الشرق (الأسطورية) هذه تعكس في الحقيقة الوجه الآخر المقابل للعقلانية الأوربية التي طورت مبادئ عصر التنوير والتقدم الاجتماعي والتي تنسجم مع التطور العلمي – التقني وكذلك الصورة المغايرة التي رسمها بعض الأوربيين للشرق وأثارت الوعي بالذات وبالخصوصية والتفرد ، التي تكونت من خلال المغايرة لآن صورة الآخر هي على الدوام صورة الذات معكوسة، والحقيقة ليس سحر الشرق وأهميته الثقافية هي التي جلبت أنظار الأوربيين إلى الشرق فحسب، بل تلاقي الصور والمعاني والمعارف مع المصالح الحيوية والإستراتيجية للغرب، الذين اندفعوا بوعي أو بدونه، مشدودين بإيديولوجية متعالية ما عدا القليل منهم، الذين قدموا معلومات وإضافات قيمة ومثيرة للأهتمام كما فعل نيبور ١٧٦٠ وبوخارت ١٨٠٩، وكذلك ستيزن وغيرهم[٣].

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ارتبطت نشاطات المستبشرين باسباب اقتصادية وسياسية جديدة، حيث أخذت الرأسمالية تنمو نموا حثيثا نحو عصر الامبريالية مع تحول نظام المنافسة الحرة إلى نظام الاحتكار حيث اقتضى تقسيم إلى مناطق نفوذ غير مباشر، تضمن للدول الصناعية الكبرى أسواقا ومواد أولية، واستلزم هذا التوجه السيطرة على مصادر الطاقة والمواقع الإستراتيجية مثلما استلزم التأثير عن طريق تطويعها وتوجيهها لأرتباطها بالتاريخ والدين والحضارة من اجل التحكم في بعض اتجاهاتها المستقبلية[١] .

---

[١] ابراهيم الحيدري، صورة الشرق في عيون الغرب، دار العافي، بيروت ١٩٩٦، ص٢٧.

[٢] أردموتة هلل، الغرب في مرآة الشرق – فكر وفن ، ميونخ ١٩٨٤، العدد ٤٠ ، ص ٥١-٥٢.

(3) Wissmann, Stuttgart, Ethnologies Chichte Dokuments Zur, Arabian 1965.

[١] فريدمان بوتنر، امبريالية وجدانية أم جسر للأتصال الحضاري، الدراسات الشرقية في ألمانيا الأتحادية – البنية والوظيفة – فكر وفن ، العدد ٤٠ ، ميونخ، ١٩٨٤، ص١٨.

أفريقيا بين التنصير والتغريب:

علاقة القارة الأفريقية بالدين الإسلامي وبالنصرانية موغلة في القدم، وثابتة بالتواتر في كتب التاريخ ومع إن الديانة المسيحية سبقت الإسلام إلى إفريقيا بما لا يقل عن ستة قرون، إلا إن الإسلام استطاع في اقل من نصف قرن أن يحتوي القارة بالشكل الذي جعل المراكز المسيحية عبارة عن جزر صغيرة وسط بحار الإسلام، ولو لا تدخل العرب لأستمر تقلص المسيحية من جهة، وإحراز الإسلام الانتشار والتقدم من جهة أخرى، فمع بداية القرن الخامس عشر وجدت ظروف وإحداث أعادت ترتيب التاريخ الإفريقي، وجثمت ثقلها على الحياة الإفريقية الدينية والثقافية والحضارية، تلك هي دخول الاستعمار الغربي في حلبة الحياة الإفريقية.

ولما كانت النظم الاقتصادية تتشكل حسب المفاهيم والمعتقدات بل حسب الديانة السائدة، أقحم المغامرون الأوربيون الدين المسيحي الذي يؤمنون به إيجابا أو سلبا في علاقتهم بأفريقيا، فلذلك انطلقوا من أوربا بعدما اقسموا لأباطرتهم بأنهم يسعون لنشر المسيحية بالإضافة إلى الوصول لبلاد التوابل[٢] .

ومع استهلال القرن التاسع عشر كانت هذه العلاقة ترسو على تثبيت مركزية أوربا وطرفية أفريقيا في كل مجالات الدين والاقتصاد، وانتهت إلى تقرير هذه الدول الامبريالية نزعتها الاستعمارية وسيطرتها المطلقة على أفريقيا عام ١٨٨٥ في مؤتمر برلين، والذي يهمنا أكثر في هذه التطورات هو إن الدين المسيحي الذي تعطلت محركاته منذ قرون في أثيوبيا ومصر بدأ يستعيد حيويته من جديد في ظل الوصاية المنتشرة على نهر الزمبيزي، وفي البداية لم يكن سوى دين رمزي يبارك به أباطرة أوربا المتسلطون منجزات سفنهم فيما وراء البحار، فكانت معظم السفن تحمل أسماء مسيحية مثل سفينة يسوع التي شاركت بها ملكة انجلترا أليزابيث الأولى في ستينيات القرن السادس عشر، لدعم رحلات جول هربكنز للنخاسة بغرب أفريقيا، وكذلك كان أول حصن يشيده المغامرون على السواحل الأفريقية يرسل له ملك الدول التي يتبعها قسا يعطيه اسما من أسماء القديسين مثل حصن قاعدة سان جورج قرب ساحل العاج وقاعدة سانتا جون قرب الرأس الأخضر[١]، ومع إن الثورة الصناعية في أوربا وما لابسها من تثبيط علاقة الناس بالدين وجدت الكنيسة نفسها على هامش الحياة العامة وخاصة في ظروف الثورة الفرنسية التي هبت عدواها على معظم الدول الأوربية، فبارت تجارة رجال الدين في سوق الشعوب الأوربية، وكدست سلبة الكنيسة في معارضها هداية الشعوب الإفريقية، وان على الرجل الأبيض أن يتحمل عبء تبشير هذه الشعوب وتمدنها، فهبت البعثات التنصيرية، ودبت حركات المنصرين من كل حدب وصوب لخلق مملكة المسيح على الأرض، وقد أوجدت هذه الجهود التنصيرية في ظل الحماية الاستعمارية جوا خصبا للمسيحية في أفريقيا[٢].

---

[٢] حورية توفيق مجاهد، الأسلام في أفريقيا وواقع المسيحية والديانة التقليدية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٣٢.

[١] أمباي لوبشير، قضايا اللغة والدين في الأدب الأفريقي، مركز دراسات المستقبل الافريقي، القاهرة، ١٩٩٦، ص٩٣.

[٢] علي احمد فليفل، الدولة لعثمانية والمسلمون في جنوب أفريقيا، دراسة وثائقية للفترة من ١٨٥٦-١٨٧٨، أوراق أفريقية، العدد ٣، مركز دراسات المستقبل الأفريقي، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٣٢.

فلارتباطها بمدارس ورادارات المستعمر كسبت لها أتباعا في كل هذه الدول على نسب متفاوتة، ففي ظل المناطق التي لم يصلها الإسلام من قبل لبعدها عن بؤرة التأثير بين الثقافة العربية الإفريقية سواء في المبادلات التجارية أو الهجرات والدعوة الإسلامية لأسباب في معظمها جغرافية، كان انسياب المسيحية فيها طليقا في لباس المدنية الغربية حرا لم يواجه بكثير من العقبات إذا استثنينا ذلك الرفض الذي ينطلق في غالبه من اعتبارها دين الرجل الأبيض الغازي.

وأما في باقي القارة الأفريقية حيث كان للإسلام موطيء قدم سابقة، فقد كان دخول المسيحية يتم عن طريق صورة الصراع بين المسلمين والمستعمرين، والحركات الجهادية التي احتوت احداث القرن التاسع عشر علامات رفض للأستعمار وسياساته التنصيرية في أفريقيا، فظهرت حركة الشيخ عثمان بن فوديو في نيجيريا (١٨٠٤-١٨١٠) وحركة محمد احمد عبد المهدي في السودان (١٨٤٣-١٨٨٥) وحركة رابح بن عبد الله في وادي تشاد وحركة الشيخ عمر المختار في ليبيا، والشيخ عمر الفوتي في منطقة السودان العربي (١٧٩٧-١٨٦٤) ولرجحان كفة الاستعمار العسكرية بسلاحه الناري تمكن من ان يطيح بكل هذه المقاومات المناهضة له، بإعدام قادتها بعض الأحيان أو طمس حركاتهم في معظم الأحيان ومتابعة السياسة التوسعية الاقتصادية والدينية دون مبالاة، وقد بقي الإسلام بالرغم من كل ذلك دين السواد الأعظم من الإفريقيين وتمكن من الوصول إلى كثير من المناطق التي لم يصلها قبل مجيء الاستعمار[٣].

حرصت الإرساليات التنصيرية على نقل الحضارة الغربية الأوربية لأفريقيا مما جعل صبغة الأجنبية والتغريب ترتبط في الأذهان بالمسيحية في أفريقيا، وهو ما ترتب عليه استخدام تعبير (الأورو-مسيحية Euro-Christianity) في هذا المجال والنظر إلى الأفريقي المسيحي على انه أوروميسحي او مسيحي أوربي، فالعمل المسيحي لم يقتصر على نشر الديانة المسيحية والدعوة إلى الإنجيل ولكن تضمن أيضا التعليم والحرف والفنون والرعاية الطبية، كما ان زراعة الثقافة الأوربية أصبحت تعد أساسيا من الأهداف التنصيرية.

ويلاحظ إن المخططات التنصيرية نمت حول تلك المدارس والعيادات الطبية التي نشأتها الإرساليات، ولم تعكس إلا القليل جدا من الحياة الإفريقية في القرى المحيطة، فالافريقيون المسيحيون المقيمون في الإرسالية كانوا في الواقع تقريبا يعيشون في ارض أجنبية ويتلقون ثقافة أجنبية ودينا أجنبيا، وقد أعطيت أسماء أجنبية للأفريقيين في تلك المحطات التنصيرية، وكانت الشكوى من الأجنبية والتغريب في الاتجاه والعبادة والحياة وطريقة المعيشة، حيث ترددت في أفريقيا على اتساعها شكوى من الارتباط بأنماط ومؤسسات غير افريقية مثلت المسيحية كعقيدة أجنبية، وفي الواقع فان المسيحية في الأساس قد طوعت نفسها للحياة الاجتماعية والشخصية للشعوب الأوربية إلى الحد الذي أصبحت فيه مرادفة لهذه الحياة بكافة أنواعها، أي ذات صبغة أوربية، فقد حدث توليف بين المسيحية والثقافة في الغرب أدى واقعيا إلى عرقلة انتشار المسيحية خارج نطاق من يتبعون الحضارة الأوربية، فالظروف والأساليب التي نجحت في الغرب لا يمكن تطبيقها تلقائيا في أفريقيا، فإذا عملت المسيحية وصحة إنها مجرد فقرة أو مادة أخرى مستوردة من الغرب فستبقى عميقة في اتصالها

---

[٣] سالي هاني، أفريقيا بين التنصير والتغريب، مكتبة الأقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٦، ص٢٢٣.

بالغرب، ومن ثم تصبح عميقة في مهمتها، وحيث ان الكنيسة في أفريقيا تعتبر أجنبية أساسا، فإنها من ثم ترفض بشدة من جانب الافريقيين الذين يسعون لإبراز الشخصية الأفريقية والتخلص من آثار الاستعمار التقليدي[١].

ومن الجدير بالملاحظة إن أسلوب التغير القائم على تحويل روح واحدة أي إدخال كل فرد على حدة للمسيحية قد اتبع في أفريقيا كما هو متبع في المسيحية العامة، ولكنه وان تمشى مع الفردية الغربية إلا انه اغفل طبيعة الانتماء الجماعي في أفريقيا وأعطى الانطباع بان على الأفراد إن يتركوا قبائلهم لينتموا للقبيلة المسيحية، ومن الواضح أن المنصرين ينصرون في إطار ثقافة المسيحية البروتستانتية الانجليكية أو الكاثوليكية الرومانية في القرن التاسع عشر، وتبدو الصعوبة في خضوع الكنيسة لرجال الدين الأوروبيون البيض الغرباء عن الثقافة الأفريقية وغير القادرين على الإحساس بالأفريقيين والذين يؤكدون سواء كانوا كاثوليك أو بروتستانت، إن المسيحية تنتمي لهم مما يصبغها بصبغة أوربية[١].

تميزت المحطات التنصيرية منذ البداية بالاستغلال الذي بدا بالاستعباد التنصيري وذلك منذ إقامتها خاصة في غرب أفريقيا في ضوء مثلث الأطلنطي للتجارة الذي مثل العنصر البشري الأفريقي الذي أقتلع من جذوره في ظل تجارة الرقيق لتنتقل للعالم الحديث أهم أضلاعه بحيث أطلق عليه (المثلث الذهبي) ويتم فيها، المحطات التنصيرية تجنيد العبيد وبيعهم وتشغيلهم وتقسيم القبائل والممالك [٢].

أما أول من توغل في أفريقيا من المبشرين من جهة النيل هو(جيمس بروس الأكوسي) المتوفي سنة ١٧٩٤ ووصل إلى مصر سنة ١٧٦٨ وصعد إلى الأقصر وشاهد آثارها ثم إلى أسوان ومنها إلى القصير ومنها أجاز إلى جدّة وركب البحر من جدّة إلى مصوع ومنها صار إلى الحبشة مزودا بتوجيه من بطريك القبط من مصر الى الرأس ميشل واقام مدة بمدينة غندار وقصد منابع النيل وظن انه وصل إلى رأس منبع النيل الأزرق، والحقيقة أنه لم يصل إلا إلى الصباوي، وهو ملتقى أنهر من النيل لا أصل منبعه، ثم عاد إلى مصر عن طريق أسوان، وقد كانت غزاة مصر هذه سنة (١٧٩٨-١٨٠١) مبدأ الأسفار والرحلات صوب منابع النيل أستمرت إلى ١٨٤١، وقد حذا حذو نابليون بونابرت في سبيل الأكتشاف أمير مصر محمد علي ، ففي زمانه وصل فريدريك غاليون إلى طيبة، وواحة سيوه ثم صعد مجرى النيل إلى إن وجه قرب العاصمة القديمة مروية (١٨١٨-١٨٢٠).

وفي عام ١٨٤٧ بدأت بعثة تتحدث الألمانية تسمى (جمعية بريمن- Bremn Society Ewe Country) تعمل في الشرق من الفولتا[٣].

أما الألماني كرايف وايزيمان وأرهاوت وريجان قد توغلا في أصقاع البحيرات الكبرى ووصلا إلى قنن الثلج في بلاد كينية والكيلمان نجارو في ١١ مايو ١٨٤٨، ومن هناك أنفتحت الطريق التي أنطلق منها صموئيل باكر(١٨٦٤-١٨٧٣) والكولونيل غوردون وأمين

---

(١) علي مزروعي، قضايا فكرية، أفريقيا والأسلام والغرب، ترجمة صبحي قنصوة وآخرين ، سلسلة دراسات أفريقية، ج٤، مركز دراسات المستقبل الأفريقي، القاهرة، ١٩٩٨، ص١١٨.

(1) Groves, C. P. The Planting of Christianity in Africa Vol. 11(London), P.101.

(٢) محمود طه ابو العلا، المسلمون في أفريقية المدارية، سلسلة المسلمون، الجزء الثاني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٠٩.

(٣) فيج، جي، دي، تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة يوسف نصر، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص٢٥٦.

باشا ولنيانت بك وغيرهم، وكان لهؤلاء السياح أثر بعيد الصيت في تهذيب الزنوج، وأجتهد صموئيل باكر وأصحابه بإلغاء الرق، مستظهرا ذلك بأمر الخديوي، وهلك نوردون في الخرطوم بيد المهدي بعد ان أقام بضع سنين عشرة يرقى من أخلاق السودانيين ولم يكن شيء يشابه همة هؤلاء السياح في شرق أفريقية سوى همة أعضاء تلك الجمعية الأفريقية التي تأسست سنة ١٧٨٨ [١].

فهؤلاء السياح وأمثالهم الذين بقصص أسفارهم هاجوا شوق مبشري الكنيسة الانليكانية والمثيودية والانكليزية، وكان الانلكيانيون منذ سنة ١٨٠٤ أسسوا مركزا لهم في سيراليون، واقتدى بهم الميثوديون بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ وفي سنة ١٨٦١ كانت لنصارى الزنج في تلك الأقطار كنيسة مستقلة بذاتها، وأما طريق الكاب فهي الطريق الثالث الذي دخل منها المبشرون إلى باطن أفريقية، والمبشرون هنا لم يسبقهم السياح بل كانوا هم السابقين بدأ بذلك جور جشميد سنة ١٧٣٧ ويانس سنة ١٨٠٠ [٢].

أن الذين بدأوا التبشير لم يكونوا الانجليزمثل الألمان والدانماركيين، وقد كان أول من اقتحم هذه الأقطار من الألمان هم (الموافيين) حاولوا الدخول في أربعة أبواب معا (الجزائر، القاهرة، ساحل غينية، الكاب) ففشلوا في الثلاث أبواب، الأولى، بسبب تمسك أهل الإسلام بدينهم وبما فتكت بهم الحمى في غينية، فقد كانوا يرسلون الفوج فتحصدهم الحمى تباعا حتى عدلوا عن رسالة غينيا، ولم يستأنف العمل هناك إلا بعد ستين سنة بواسطة جمعية (بال) السويسرية الألمانية[٣]، أما في بلاد الكاب فقد كانت لهم اليد الطولى في تهذيب الهوتنتون والكافر وتخفيف ألام المجذوبين لمتوطن المبشر الألماني (جورج شهيد) في بافيانس كلون، على بعد ٥٠ ميل شرقي الكاب، كان الفلاحون الهولنديون (البوير) يحتقرون الهوتنتون إلى حد انه قرأ أمام عدة كنائس الإعلان الآتي:"ممنوع دخول الهوتنتون والكلاب الى هنا" ، وفي سنة ١٨٩٢ أسس المورافيون في تلك البلاد مركزا أطلقوا عليه أسم (وادي الرحمة) وفي سنة ١٨٠٠ صار هذا المركز قرية ذات ١٢٠٠ نسمة فيها صناعات وأشغال مفيدة، واليوم من أزهر بلاد الكاب، وفيها ثلاثة آلاف هوتنتوني مسيحي.

ثم أوغل المورانيون في بلاد الكافر، لكنهم ثبتوا موقفهم وصبروا على الشدائد من سنة ١٨٢٨ حتى سنة ١٨٨٥، إذا وقفوا لتأسيس مركز في شمال بحيرة بناسة في الجنوب الغربي من المستعمرة الألمانية الشرقية، وفي سنة ١٨٨٦ أنشأت جمعية برلين الأفريقية وهي إحدى جمعيات برلين الإنجيلية أسسها ديستلكاب للتبشير في شرقي افريقية فأرسلت دعاتها الى الجنوب الغربي من مملكة الاورانج والى غرب غريكا والى بلاد الباسوت من الترنسفال والى شمال بحيرة بناسة فيسكنها هذه الأيام ٢٧ مركز دعاية و٢١ الف متنصّر وأزهر

---

[١] أفغراف، سميروف، تاريخ الكنيسة المسيحية، ترجمة ألكسندروس (مطران حمص) ، مترجم عن الطبعة الروسية التاسعة ١٩١١، حمص ١٩٦٤، مطابع الفجر.

[٢] مجهول ، مختصر تاريخ طائفة الملكيين الكاثوليكيين، بيروت، ١٨٨٤/ ص٣٠٤.

[٣] وصلوا أفريقية سنة ١٨٢٨ بطلب من ملك الدنمارك فذهبوا الى ساحل الذهب وكانوا سبعة فمات منهم خمسة بالحمى والتجاء احد الاثنيين الباقيين الى أحد الجبال ، وفي سنة ١٨٣٥ أسس في اكرونيع كنيسة النصارى السود، أذ مضت ٣٤ سنة ولم يتنصر سوى ٨٠٠ شخص، يراجع: بلنزتي يعقوب يوسف، وردية العذراء بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس الرهبنة الوردية المقدسة، رسالة راعوية، القدس، ١٩٨٤، مطبعة البطريركية اللاتينية/ ص٣١.

مؤسساتها مدينة بوتشابيكو إلى عدد سكانها ٤ آلاف كلهم نصارى وفيها صناعات ومهن[١]، ثم جمعية الكنائس الإنجيلية في بلاد الراين، أرسلت دعاتها للتبشير في بلاد الهوتنتون، ثم وصلت بلاد الناما والهريرو، والذين هم أشد القبائل عتوا والأوفامبو الذين بين نهر الأورانج والكونين، ثم إن احد البيوتات التجارية الألمانية من برام أسس محلا تجاريا في (آو) أو (تجهينفة)، فامتد هناك الألمان وجعلوا لأنفسهم مستعمرة الكاب ٢٥ مركزا للدعاية ونحو ١٦ ألف متنصرا، وفي مستعمرة الجنوب الغربي المذكور ٢٤ مركزا ونحو ١٢٥٠٠ متنصر ثم جمعية شمالي ألمانيا التي مركزها برام وجمعية هرمانسبورغ التي مركزها هانوفر[٢]، ولما استولى الألمان على الكاميرون لم يرتاحوا إلى وجود المبشرين الانجليز فيها فتخلى هؤلاء عن مؤسساتهم لجمعية بال الألمانية عام ١٨٨٧ ولبث النصارى الوطنيون مستقلين بكنائسهم وتحولت الجمعية المعمدانية من الكاميرون إلى الكونغو، حيث كان البرتغاليون قد ادخلوا كثيرين من الكاثوليكية فاجتهد الانجليز المعمدانيون في استمالة قسم من أهالي الكونغو.

امتازت الرسالات الألمانية بالتوفيق في (اللغات الأفريقية) وبالثبات وحفظ النظام ولكن الرسالات الانجليزية والايكوسية امتازت بالجرأة وبالصدق في تحرير الزنوج ومنع المظالم الواقعة عليهم من المستعمرات، على أن كلا الفريقين أدخل في أفريقيا الأعمال اليدوية ولزراعة مقرونة بالتعليم الديني والتهذيب[٣] .

لقد كانت أفريقيا مسرح لعمليات الغربيون حيث وضعوا شعوب القارة السوداء عبيد في ثياب التهذيب الأخلاقي وغيره، وقد أستغلوا المسيحية في وضع مخطط أستعماري لتلك القارة، حيث كانت أهداف المبشرين المعلنة نشر المسيحية ولم تكن للسيطرة الاستعمارية السياسية، وعندما شعر بعض من الإفريقيين بأن المبشرين ما هم إلا سن الرمح للأستعمار، كرهوهم، واظهروا هذه الكراهية واعتبروهم مثل أولئك البيض الذين لم يكن دوافعهم إلا لسيطرة واستغلال إمكانيات البلاد، وإزالة سلطة الزعماء وأنظمتهم السياسية[١].

****

[١] دوفيينو، بطرس، حياة مجيدة في خدمة الكنيسة، غبطة البطريرك يوسف فاليركا، ترجمة ابراهيم بطارسة، القدس، ١٩٧٢، مطبعة البطريركة اللاتينية، ص ٨٣.

[٢] شوملي ، قسطندي، أخوة المدارس المسيحية – تاريخ المؤسسة للأرسالية في الشرق، بيت لحم، ١٩٧٤، جامعة بيت لحم، ص١٣.

[٣] مجهول ، المصدر السابق، ص ٣١٦.

[١] زاهر رياض، أستعمار أفريقية، الدار القومية للطباعة والنشرن القاهرة، ١٩٦٥، ص١٥٥.

المصادر العربية:
١. ابراهيم الحيدري، صورة الشرق في عيون الغرب، دار العافي، بيروت ١٩٩٦.
٢. أدوارد سيد ، الاستشراق ، ترجمة كمال ابو ديب ، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت ، ١٩٨١.
٣. أردموتة هلل، الغرب في مرآة الشرق – فكر وفن ، ميونخ ١٩٨٤، العدد ٤٠ .
٤. أفغراف، سميروف، تاريخ الكنيسة المسيحية، ترجمة ألكسندروس (مطران حمص)،مترجم عن الطبعة الروسية التاسعة ١٩١١، حمص ١٩٦٤، مطابع الفجر.
٥. أمباي لوبشير، قضايا اللغة والدين في الأدب الأفريقي، مركز دراسات المستقبل الافريقي، القاهرة،١٩٩٦.
٦. جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، دار الفكر العربي، الكويت، ١٩٨٦.
٧. جورجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج١ .
٨. حورية توفيق مجاهد، الأسلام في أفريقيا وواقع المسيحية والديانة التقليدية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢.
٩. دوفيينو، بطرس، حياة مجيدة في خدمة الكنيسة، غبطة البطريرك يوسف فاليركا، ترجمة ابراهيم بطارسة، القدس، ١٩٧٢، مطبعة البطريركة اللاتينية.
١٠. رودي بايت، الدراسات الاسلامية بالعربية في الجامعات الالمانية، ترجمة مصطفى ماهر،القاهرة، ١٩٦٧.
١١. زاهر رياض، أستعمار أفريقية، الدار القومية للطباعة والنشرن القاهرة.
١٢. سالي هاني، أفريقيا بين التنصير والتغريب، مكتبة الأقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٦.
١٣. شوملي ، قسطندي، أخوة المدارس المسيحية – تاريخ المؤسسة للأرسالية في الشرق، بيت لحم، ١٩٧٤، جامعة بيت لحم.
١٤. علي احمد فليفل، الدولة لعثمانية والمسلمون في جنوب أفريقيا، دراسة وثائقية للفترة من ١٨٥٦-١٨٧٨، أوراق أفريقية، العدد ٣، مركز دراسات المستقبل الأفريقي، القاهرة، ٢٠٠٢.
١٥. علي مزروعي، قضايا فكرية، أفريقيا والأسلام والغرب، ترجمة صبحي قنصوة وآخرين ، سلسلة دراسات أفريقية، ج٤، مركز دراسات المستقبل الأفريقي، القاهرة، ١٩٩٨.
١٦. فريدمان بوتنر، امبريالية وجدانية أم جسر للأتصال الحضاري، الدراسات الشرقية في ألمانيا الأتحادية – البنية والوظيفة – فكر وفن ، العدد ٤٠ ، ميونخ، ١٩٨٤.
١٧. فيج، جي، دي، تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة يوسف نصر، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.
١٨. محمود طه ابو العلا، المسلمون في أفريقية المدارية، سلسلة المسلمون، الجزء الثاني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩.
١٩. مختصر تاريخ طائفة الملكيين الكاثوليكيين، بيروت، ١٨٨٤.
٢٠. نجيب العفيفي ، المستشرقون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١.
٢١. هشام جعيط، اوربا والاسلام، ترجمة طلال عتريسي ، دار الحقيقة ، بيروت، ١٩٨٠.

المصادر الأجنبية:
1.Burton, R. Kake Relion of Central Africa, London, 1800.
2.Burton Zanzibar, Gity, Island and Coast Vol. I .

3.Coupland East Africa and its inraders.
4.Custer Pfonn Muller: Handbuch der Island Later atur Berlin 1933.
5.Groves, C. P. The Planting of Christianity in Africa Vol. 11(London).
6.J. Krapt Trareles Researches and Missionary Labours during an eighteen years residencein Eastern Africa, London, 1868.
7.Mona Macmillan, Introducing East Africa.
8.Pearce Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa.
9.Slade Ruth King Leopods Congo, London, 1962.
10. Taylor, A. i. P. Germany's First Bid for Colonies 1889, 1880 (London 1938).
11. The Last Journal of David Ivingston Central Africa from 1865 to his death. 2Vols. London 1880.
12. Wissmann, Stuttgart, Ethnologies Chichte Dokuments Zur, Arabian 1965.